مصر وسوريا

بحث سياسي انتقادي في

تاريخ العلائق بينهما قديماً وحديثاً

بقلم

بولس مسعد

هدية

من المؤلف

(الى ادباء المصريين والسوريين)

مصر — ابريل « نيسان » سنة ١٩١٢

obeikandl.com

مصر وسوريه

« تاريخ العلائق السياسية بينهما قديماً وحديثاً »

عصر الرعاة في مصر

ان اتصال القطرين المصري والسوري احدهما بالآخر يرتقي الى زمن عريق في القدم وكان الرعاة المعروفين عند المصريين باسم هيكسوس (١) اول حلقة من سلسلة هذا الاتصال ذلك انه بعد انقضاء زمن غزوات العيلاميين في سوريا واستتباب الامر للممالك الآرامية والكنعانية في ارجائها قام بين القرنين الحادي والعشرين والعشرين قبل الميلاد ثلاثة او اربعة دول من الملوك المنتسبين الى السلالات الفينيقية وهي الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة « ومن العلماء من اقتصروا على ذكر الدول الثلاث الاخيرة » فاجتاحوا مصر السفلى واسسوا هنالك دولة قوية

(١) لفظة هيكسوس مؤلفة من هيك اي ملك وشاسو او سوس بالعبرانية اي رعاة او ساس باللغة المصرية اي خيل لان الرعاة اول من ادخل الخيل والمركبات الي مصر وقيل انهم عبرانيون وقال ماريات باشا في كتابه تاريخ مصر القديم انهم اخلاط من البدو

استمرت ردحاً طويلاً من الدهر يتراوح بين ٥١١ سنة في اعتبار يوسيفوس وبين ٥١٨ سنة في اعتبار غيره من المؤرخين وقيل غير ذلك

وقد كانت غزوة الرعاة لمصر نتيجة طبيعية للانقلاب الذي احدثته في العالم القديم فتوحات الشعوب الاسيوية ولا سيما السيلاميين الذين ضايقوا الكنعانيين وسدّوا عليهم منافذ الرزق ففرت بعض قبائل منهم من وجه الغزاة ومازالت تتنقل من مرحلة الى اخرى في طلب الفتح والاستعمار حتى اتصلت الى مصر وغشت ارض الدلتا واستولت عليها. وقد استغرق تنقلها هذا منذ هجرت مواطنها الاصلية الى ان

المتنقلين من بلاد العربية وسوريا ولكن معظمهم من الكنعانيين والرأي الارجح فيهم انهم من قبائل سامية وكنعانية جاءوا من ارض كنعان وسوريا وبلاد العربية واجتازوا فلسطين الى مصر والامة الحثية هي التي تولت قيادتهم وجمعتهم في عهدة واحدة وغرض واحد فانضووا تحت رايتها وقد وجدوا في هيكل سمنه « تاميس » صحيفة قديمة عليها رسوم ترمز الى ذلك ووجدوا صفيحة اخرى في جهة قرنه من اعمال مصر استدلوا من رسومها على ان الحثيين هم الذين قادوا الرعاة في غزوتهم لمصر السفلى . وهذا مايجلو لنا سر حصر الفراعنة اعمالهم الحربية في شالي سوريا اذلالا للحثيين وانتقاماً منهم

حلت في وادي النيل ردحاً طويلاً من الدهر يتعذر تقديره

وقد ذهب احد المؤلفين من قدماء المصريين الى ان الرعاة ارتكبوا في غزوتهم هذه لمصر كثيراً من المظالم كسبي النساء والاطفال ودك الهياكل وحرق المدن ونحو ذلك غير ان الرأي المعول عليه انهم ابقوا على الهياكل والآثار ولم ينقضوا ويحرقوا الا ماقضت عليهم ضرورة الفتح بنقضه وحرقه من المدن والحصون مما كان يتعذر عليهم فتح البلاد من دونه بدليل انهم عثروا في بعض مدن مصر كتانيس بقرب دمياط وبوبست « تل البسطة » بقرب الزقازيق بتماثيل وآثار للملوك تقدموا عهد الرعاة ولم يعبث هؤلاء بها بل اذخروها كآثار ذات قيمة تاريخية كبيرة

وقد شيدوا في مصر السفلى كثيراً من المدن كآفاريس « مدينة المهاجرين او الهاربين » شرقي السويس وكانت حصينة جداً ومدينتي تانيس وبوبست اللتين كانتا عاصمتي ملكهم واقاموا ابنية فخيمة لم تزل آثارها شاخصة الى اليوم ونقشوا اخبارهم واسماءهم على هذه الابنية وعلى الآثار المصرية الاولى

وفيما كان الرعاة منصرفين الى تعزيز دولتهم في مصر السفلى كان ملوك الصعيد الوطنيين في تاب « طيبة » عاصمتهم في بدء يقظتهم وما زالوا يجاهدون في تقوية مركزهم الى ان آنسوا من انفسهم القوة فهبوا لمناهضة الرعاة ووقعت الحرب بين الدولتين وطال امدها ولا سيما الحرب الاخيرة التي استمرت اكثر من قرن واوهت قوى الرعاة وكانت اسبابها دينية ذلك ان ابابي ملك الرعاة بعث يدعو ساكن انده ملك طيبة الى عبادة شات او « ستخ » اله آبائه الرعاة فابى فنشبت الحرب وظلت سجالاً بين الدولتين الى ان قام من دولة الوطنيين احمس الاول مؤسس الدولة الثامنة عشرة من دول الفراعنة وكان الضعف تطرق الى دوله الرعاة فحاربهم وحاصر آفارى عاصمتهم باربعمائة وثمانين الف مقاتل ولما عجز عن فتحها صالحهم بعد ان اشترط عليهم الجلاء عن مصر آمنين فخرجوا منها في بدء القرن السابع عشر قبل الميلاد الى اليهودية واستقروا هناك ولم يستطيعوا التقدم الى الامام لان الاشوريين كانوا قد بسطوا سلطتهم على الاصقاع السورية

وظل قوم منهم في مصر الشرقية يحرثون الارض ولا سيما في القرى الواقعة حول بحيرة المنزلة . وبخروج الرعاة من مصر رسخت سلطة الفراعنة في سائر البلاد المصريه .

وفي عصر الرعاة انشأ الفينيقيون في مصر السفلى كثيراً من المستعمرات التجارية وكانوا يأتون اليها بمصنوعاتهم وسلعهم ويحملون تجارة مصر على سفنهم الى الاقطار الاسيوية وامتدت متاجرهم على طول السواحل الافريقية المقابلة للساحل الاوربي من اطراف مصر شرقاً الى جبل طارق غرباً .

وباتصال الفينيقيين بالمصريين في عصر الرعاة اتصل نفوذ فينيقية الى مصر قبل ان يتصل نفوذ مصر الى فينيقية فيما يتعلق بالصنائع والدين والآداب .

وفي ايام الرعاة هجر يعقوب حفيد ابراهيم الخليل حبرون في ارض الخليل مع عشيرته وقصد الى مصر حيث انضم الى ابنه يوسف كبير وزراء ابابي آخر ملوك الرعاة واشهرهم وكان اباً للشعب الاسرائيلي الذي اقام في مصر اربعة قرون .

لما اشتد ساعد المصريين واستتب لهم الامر في بلادهم تطلعت انظارهم الى التوسع في الملك وكانوا قد تلقنوا الفتح من غزاتهم الرعاة وهم يترصدونهم ليثأروا لانفسهم منهم باكتساح بلادهم والانتفاع بثمار الفتح وكانت سوريا في ذلك الحين مضماراً يتباري فيه ملوك مابين النهرين ويتنافسون في احراز السيادة على ممالكها بعد ان كانت هذه الممالك امنت شرهم ردحاً من الزمن وانصرفت الى تعزيز مركزها التجاري والصناعي فكان هذا التنازع مدعاة لاستيقاظ الدولة المصرية ونهوضها لمسابقة الممالك الشرقية وخصمه شوكة بابل وبسط نفوذها على ماتيك الاصقاع . فاشهرت على آسيا حرباً عوانا وكان للفراعنة من استمرار التنازع والتنافس بين ممالك سوريا الصغيرة وتسابقها الى استنجادهم باب للتدخل في شؤون هذه الممالك تظاهراً منهم بالتوفيق فيما بينها او بردّ غارات غزاة المشرق عنها وهو نفس السبب الذي تذرع به الرومان بعد ذلك بقرون طويلة للتدخل في شؤون الممالك الشرقية والتدرج من ذلك الى التسلط عليها . وهكذا ثبتت

الدولة المصرية على مناوأة سوريا ومنازعة الممالك الشرقية السيادة فيها خمسة قرون كاملة من القرن السابع عشر الى اواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد حيث ابتدأ عصر الاستقلال الوطني في سورية .

غير ان الفاتحين المصريين على اختلاف دولهم قاسوا الشدائد في اخضاع ملوك سوريا ولا سيما ان اولئك الملوك لم يكونوا يثبتون على ولائهم لما كانوا عليه من النزوع الفطري الى الاستقلال . فما كانوا يفرغون من اخضاع مملكة حتى تنهض مملكة اخرى وتجاهر بالعصيان وهكذا فان من هؤلاء الفاتحين من افنوا سني ملكهم في مقاتلة العصاة في سورية وردّ الممالك الكنعانية الى طاعة مصر كطوطمس الثالث وساتي الاول ورعمسيس الثاني ورعمسيس الثالث . وقد تتبع اولئك الفاتحين في غزواتهم طريقاً واحداً فكانوا يجتازون بلاد كنعان الاصلية الى مدينة مجدّو — وكانت من احصن مدن سورية ومن هناك كانوا يجتازون الوهاد فوق بحيرة طبرية في جهة قدس « بحيرة الحولة » ومنابع الاردن عند مدينة لايش ثم يسيرون في المضايق عند سفح حرمون الغربي

ولبنان الشرقي ثم يمرّون على وادي الليطاني الذي كان اذ ذاك بحيرة كبيرة ثم على بعلبك فوادي العاصي الى ان يصلوا الى قدس الكبيرة وهي حمص وحماة ثم يدخلون في البادية سائرين الى قرقيسياء وهناك يعبرون الفرات الى الجزيرة الفراتية . ولم يدنوا من صيدون والمدن الساحلية والفينيقية لانها كانت محالفة لهم

وكان الفراعنة في غزواتهم يكتفون ببسط سيادتهم العليا على البلاد التي يفتتحونها في الديار السورية والاسيوية لعجزهم عن اخضاعها تماماً ولعدم وثوقهم من ثباتها على ولائهم وقتاً طويلاً فيفرضون عليها خراجاً سنوياً ويجندون جماعة من اهلها ويربون في مصر خلفاء ملوكها وما كانوا يأخذون منها من الرهائن ويقيمون في مدنها من الحاميات المصرية انما كان ذريعة لتقرير نفوذهم فيها بحيث تصبح البلاد التي تكون دانت لهم ولا وسيلة لها لانكار سيادتهم عليها وممالأة عدائهم . وكانت حكومة البلاد الخاضعة لمصر اشبه شيء بحكومة الاقطاعات لها الاستقلال التام في داخليتها ويتولاها حاكم من اهلها يلقب بملك وكان الفراعنة يحافظون على

شرائعها الوطنية ويحترمون عادات اهلها وتقاليدهم ودياناتهم فلا يتعرضون لهم في شيء من ذلك — كما يفعل اليوم اكثر الدول الاستعمارية الكبرى كانكلترا وفرنسا — ويطلقون لها الحرية في مسالمتهم بعد ان يفرضوا عليها جزية سنوية او ابرام معاهدة معهم يتبادل الفريقان بمقتضاها المنافع السياسية والتجارية .

حلفة مصر وفينيقية

وقد اثبت المؤرخون انه كان بين مصر وفينيقية معاهدة تقضي على الفريقين بالتآزر والتضافر في الملمات والخطوب فكانت صيدون عاصمة فينيقية لا تمرض قط للفراعنة في غزواتهم المتعددة للبلاد الاسيوية ولما كان المصريون يعافون ركوب البحر وانشاء الاساطيل كالاشوريين والفرس كانوا اذا احتاجوا الى نقل عساكرهم من جهة الى اخرى استعانوا بسفائن الفينيقيين وهكذا فان اسطول صيداء كان رهن اشارتهم ينجدهم في غزواتهم ويسير بجندهم لجباية الجزية من الجزر والاقطار البحرية ولها في مقابل ذلك تمزيز الاسطول بالجند المصري وغيره . وقد

اقام الصيدونيون على مسالمة الفراعنة ومحالفتهم حقبة طويلة فسالموا الدولة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين ولا سيما في عهد طوطمس الثالث الذي انشأ عمارة بحرية عهد اليهم بقيادتها وخدمتها وهكذا في ولاية رعمسيس الاول مؤسس الدولة التاسعة عشرة وابنه ساتي الاول ورعمسيس الثاني. وقد استمرت الصلات الحسنة مستحكمة الحلقات بين صيدون ومصر حتى الى عهد الدولة السادسة والعشرين فان هذه الدولة ستخدمت الصيدونيين في عماراتها لانها وجدتهم ابرع اهل زمانهم في فن الملاحة ولذلك لم يتعرض اولئك الغزاة بسوء لصيدون وهكذا لجبيل وبيروت اللتين حذتا حذوها في مسالمتهم خلافاً لبقية الكنعانيين فانهم شايعوا اعداء مصر من اشوريين وكلدان ونصروهم عليها

والنتيجة ان خضوع فينيقية لمصر لم يكن الا لتبادل المنفعة على ان يكون ملوك فينيقية سائدين في قومهم مستقلين في شؤونهم بمقتضى شرائعهم الخصوصية ولكنهم يعترفون بالسيادة المصرية ويؤدون للفراعنة الجزية وينجدونهم باساطيلهم وهذا التحالف بين مصر والممالك الفينيقية لمن اكبر الادلة

على ان هذه الممالك كانت على ضيق مساحتها عزيزة الجانب وكان شأنها مع مصر شأن النظير مع نظيره

حروب الفراعنة في سوريا

واهم الحروب التي اصلى الفراعنه نارها في سوريا كانت مع الروتن وهم مزيج من اللوديين والآراميين ومع الحثيين الشماليين وهم الذين قادوا عشائر الرعاة في غزوهم لمصر لما يستفاد من اقوال العلماء في تاريخ اولئك الغزاة . واول من حاربهم من الفاتحين المصريين طوطمس الاول الذي اقام على الفرات نصباً نقش عليه خبر فتحه لبلاد الحثيين وطوطمس الثالث الذي افتتح من الممالك السورية ١١٩ مدينة نقشت اسماؤها على احد جدران الكرنك في الاقصر وطوطمس الرابع وقد نقش خبر حملته عليهم على حجر وجدوه في هيكل امون في طيبة عاصمة الفراعنة . ثم قام رعمسيس الاول وهم باخضاعهم ولما عجز عن خضد شوكتهم حالفهم وارتد عن بلادهم وكان ملوك مصر الى ذلك الحين يترفعون عن محالفة ملوك سوريا فيما خلا صيدون على نحو ما قدمنا فاذ رأوا ما رأوا من بطش الحثيين وقوتهم اضطروا لمحالفتهم

محالفة الند لنده كما جرى لهم مع الصيدونيين . ولما افضى تاج مصر الى ساتي الاول عاد الحثيون الى مناوأة مصر فزحف عليهم وفتح قادش « قدس » عاصمتهم ثم حالف ملكهم موتنار وما لبث هذا ان عاد الى مضايقة المصريين وقطع عليهم طريق حلب والفرات بحيث باتت املاكهم محصورة في فلسطين وما جاورها من بلاد الآراميين والفينيقيين وقد نقش اخبار غزواته لبلاد الشام في هيكل امون في الكرنك وفي جملة آثار هذه الغزوات صورة تمثل اهل لامنون « اعالي لبنان » يقطعون اخشاب الارز والسرو لابنية الظافر وصورة اخرى تمثل مدينة قادش يحاصرها المصريون . ثم قام رعمسيس الثاني المعروف باسم سيزوستريس وهو الذي نقش صورته في صخر على شاطئ نهر الكلب بقرب بيروت تذكاراً لغزوته تلك الجهة فحارب الحثيين فكسروه ثم استظهر عليهم في وقعة عقد العاصي نقش خبرها في هيكل الكرنك وقد استمرت الحرب بينه وبينهم اربعة عشر سنة ولم تخمد جذوتها الا بمقتل ملكهم موتنار غيلة في احدى المعارك فخلفه اخوه كيتاسار وابرم عهدة مع المصريين

نقشت على جدار فى هيكل الكرنك وقد تعاهد فيها الملكان على التضافر واعتبار الشعبين المصري والحثي متساويين فى جميع الحقوق والمرافق وحافظ المصريون والحثيون على هذه العهدة سحابة قرن كامل . وتزوج رعمسيس بابنة كيتاسار وزاره هذا فى مصر واقيم فى مدينة طيبه حيث التقى المتحالفان نصب نقشت عليه صورتهما تتوسطهما زوجة رعمسيس الحثية . ومن ذلك الحين توطدت العلامات بين الشعبين المصري والسوري واخذ المصريون يستعملون فى لغتهم الفاظاً من فروع اللغة السريانية وانتقلت عبادة كثير من الآلهة السورية الفينيقيه الى مصر ولا سيما عبادة بعل وعشتروت

الفتح الاسرائيلي

وعقب عصر الفراعنه فى سورية واسيه فتح الاسرائيليين لارض الميعاد وطن آبائهم . خرجوا من مصر فى ولاية منفتاح بن رعمسيس الثاني بعد ان اقاموا فيها نيفاً واربعة قرون وافتتحوا ممالك الكنعانيين واستقروا في فلسطين وقد ذهب المؤرخون في تعليل احجام المصريين عن نجدة حلفائهم الصيدونيين مذاهب شتى لا سبيل لايرادها هنا والحقيقة ان

مصر وان تكن لم تعدّ ارض الصيدونيين في جملة املاكها لعدم تمكنها من اخضاعها تماماً لسلطانها الى وقت طويل فانها عاهدتها على تعضيدها في ابان الشدائد كما قدمنا ولئن كانت لم تنجدها في الفتح الاسرائيلي فلأنها اشفقت من ان ينالها اذى في تعرضها لبني اسرائيل في ارض الميعاد وهم لم يخرجوا منها الا بعد ان انزلوا بها البلاء الاعظم فرأى الفراعنة انهم في غنى عن تجشم المصاعب في الذود عن ارض كنعان سيما وان الفاتحين لم يتخطوا حدود مملكة صيدون حليفة مصر ولم يتجاوزوا الاردن الى المدائن الفينيقية التي والت المصريين فوقف الفراعنة يرقبون حركات المتحاربين عن بعد وشاقهم ان يروا حليفتهم صيدون وما جاورها من المدن الساحلية والفينيقية ممتنعة على الغزاة غير مفتقرة الى عضد او معونة

توتر العلائق بين مصر وفينيقية

وما زال الودّ مستحكم الحلقات بين مصر وسوريه الى ان سقطت صيدون وافضت السيادة السياسية الى صور في بدء القرن الثالث عشر قبل الميلاد فهاج بعد صور مطامع الفراعنة واخذوا يحينون الفرص لخمد شوكتها وظلوا

يترصدونها الى ان جلس على عرشها عبد عشتاروت في القرن العاشر فاغرى فرعون شيشق ابناء مرضعه الاربعة بقتله اضافة الى أن الفينيقيين بالانقسام الداخلي الذي تلى عادة مثل هذا الانقلاب السياسي واتخذ فرعون من جهة اخرى يربعام الافرائيمي الذي التجأ اليه يوم فرّ من وجه سليمان لايقاع الشقاق بين الاسرائيليين وقد نجحت حيلته في الامرين وغزا فلسطين وافتتح اورشليم وانشقت مملكة اسرائيل الى شطرين مملكة يهوذا ومملكة اسرائيل وكانت بين المملكتين حروب طاحنة الفتت انظار الفاتحين من ملوك دمشق وفراعنه مصر وملوك اشور وبابل وافضى الامر اخيراً الى وقوع مملكة اسرائيل تحت نير الاشوريين ومملكة يهوذا تحت نير الكلدان .

واما صور فبعد مقتل عبد عشتاروت وجلوس ابن مرضعه على العرش نشبت فيها نار الفتن الاهلية فاوهنت قواها وشلت المنازعات اعصابها ولم تسترجع ما كان لها من المجد السالف الا في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد حيث جلس بيكماليون على العرش وفرت اخته ديدون مع اشراف

المملكة الى افريقية وشيدت هناك قرطاجنة وبفرارها تأيد النظام الجديد في صور واصبحت الكلمة النافذة للشعب

العصر الاشوري :

وتوالت على سورية وفلسطين حوادث كثيرة وقف المصريون ازاءها وقفة المتفرج المحاذر لان اشور كانت تسلطت على هاتيك البلاد وخضدت شوكة مصر واوقفتها عن المسير الى الامام وقد ارعبت اشور العالم القديم بالمظالم التي ارتكبتها في تغلبها على الشعوب الاسيوية ونسج ملوكها على منوال واحد في التمتع بشقاء هذه الشعوب فلم يكن يسع المصريون التظاهر بعدائها بل كانوا يكيدون لها المكايد في الديار السورية تحت طي الخفاء حتى اذا نجحت حيلتهم في اثارة السوريين عليها هبوا لمقاسمتهم الغنيمة والا اخلدوا الى السكون وتلاهوا بشؤونهم الداخلية وحموا من التجأ اليهم من ملوك فلسطين أثر غزوات الاشوريين لبلادهم .

وكان الفينيقيون يضطرون احياناً لمهادنة اشور على المصريين اشفاقاً من شرها وهكذا لما فرغ آسر حدون ثالث ابناء سنحاريب من اخضاع سوريه اجتاح مصر واخضعها

وهزم ملكها ترهاقة من الدولة الحبشية وكان في جملة المقاتلين في صفوفه قوم من السوريين وهكذا ابنه اشور بانيبال الذي كان في منتصف القرن السابع فانه لما غزا مصر وطرد الاحباش منها مدّه ملوك فينيقية وسورية برجالهم

عصر الكلدان :

ولما انفرضت دولة اشور قامت على انقاضها دولتا مادي وبابل واقتسمتا ممالكها فكانت سوريه ومصر من نصيب نبو بلاصر البابلي غير ان هذا الفاتح تشاغل عن الديار الشامية والمصرية بمعارضة الماديين حتى انس السوريون بضعفه فدانوا للمصريين وقام فرعون نخو فاستقل ببلاده وحمل على سورية وفتح اشدود وخلفه نخو الثاني « وهو الذي ارسل بعثة فينيقية استدارت سفائنها بالقارة الافريقية » فزحف على ديار الشام وبعد ان كسر ملك يهوذا وقتله عند مجدّو عتا باً له على ولائه لاشور استأنف السير الى فينيقية فرحب الفينيقيون به ومدّوه برجالهم ووصل في غزوته هذه الى الفرات الا انه ما كاد يستتب الامر لمصر في الديار السورية حتى زحف عليها بنو خذ نصر « بختنصر » وهزم

المصريين واجلاهم عنها ووطد سلطته فيها . وما عتم المصريون
ان اخلوا البلاد حتى عادوا الى دسّ الدسائس فيها وحرضوا
اليهود على خلع نير بابل فزحف نبوخذ ناصر عليهم وكسرهم
ثم اعاد الكرة على فلسطين وسبى منهم عدداً عظيماً الى بابل

ولما وقع النفور بين مادي وبابل واضطربت المملكتان
حين حفرع خليفة نخو فرعون مصر الفرصة وعاد ينازع
بابل السيادة على سوريا واتفق مع بعض ملوك فينيقية ويهوذا
وعمون وموآب على خلع نيرها وزحف على صيداء وافتتحها
واستخدم اسطول صور لافتتاح قبرس وسائر المدن الفينيقية
فدهمه الفاتح البابلي وكسره تحت اسوار اورشليم وافتتحها
وجلا ملكها صدقيا الى بابل ثم حاصر صور ثلاثة عشر سنة
فعجز عن فتحها ثم اعاد الكرة عليها في اواخر القرن السادس
فتمّ له فتحها ودمرها . اما فرعون فكان قد تأهب لانجاد
صور ولكنه ما كاد يفرغ من اعداد معدات النجدة حتى
كانت وقعت في ايدي الكلدان وخيل الى صور ان مصر
احجمت عن مساعدتها عمداً خوفاً من الفاتح البابلي فاغتاظ
اهلها ولذلك لما هبت عمارة مصر بأثارة الفينيقيين ضد الكلدان

لم تتردد صور في نصرة البابليين على مصر . وعندي ان الفينيقيين كانوا لم يزالوا على ولاء مصر ولكنهم لم يتجرأوا على ممالأتها ضد بختنصر خوفاً من ان يحلّ بهم ما حلّ بالصوريين فانقلبوا على المصريين ولكن اسطول مصر ظفر باسطولهم وافتتح صيداء وارواد وغيرهما من مدن فينيقية الا ان ولاية مصر على سورية لم تستمر اكثر من اربعة سنين فعاد بختنصر وافتتح سورية ومصر واخضعهما لبابل

عصر الفرس

وفي ولاية الفرس على سوريه ظل شأن المصريين في علاقاتهم بملوكها وشعوبها كما كان لعهد الاشوريين والبابليين وكان الفرس يتخذون السوريين عوناً لهم على المصريين فلا هم يجسرون على معارضة فارس ومناصبتها العداء ولا يسعهم نبذ تقاليدهم الموروثة القاضية عليهم بموالاة المصريين والانتصار لهم فكان موقفهم ازاء تنازع مصر وفارس محفوفاً بالمخاطر

ومن ذلك انه لما استولى قورش الفارسي على بابل دانت له فينيقية فصادقها واستعان بها على المصريين فجهزت له

اسطولاً ضخماً لمحاربة مصر ثم خلفه على اخضاعها ابنه كمبيزس مستنجداً العمارة الفينيقية . وباتت السفن الفينيقية من اعظم قوى الدولة الفارسية تجري عليها المرتبات الضخمة وقد فازت بفتوحات كثيرة استعادت فيها مجد فينيقية وعظمتها

وفي ايام ارتحشتا الاول كان الاسطول اليوناني يوالي غزواته لسواحل فينيقية انجاداً للمصريين على الفرس ولكن العامل الفارسي كسره ثم همت مصر باسترجاع سوريه فاستمدّ الاسطول الفينيقي لصد غارة اسطولها فكفت عن التطاول وفي ايام ارتحشتا الثالث ثارت العمالات الفارسية فاختلس فرعون نكتا نبو فرصة الاضطراب وزحف على فلسطين وكسر الفرس واستولى على بعض المدن ولما شاع خبر انكسار الفرس في حرب المصريين ثار ملوك قبرس وفينيقية وثبتت فينيقية على المقاومة وانجدتها مصر بجيش من جندها بقيادة مستور الرودسي فزحف ملك الفرس على صيداء وافتتحها غيلة بمساعدة زعيم جند مصر وبسقوط صيداء عادت فينيقية الى طاعة الفرس ثم زحف ارتحشتا على مصر لمعاقبتها وافتتحها وضمها الى مملكته . وما زالت كذلك الى ان انتصر الاسكندر

المقدوني على داريوس « سنة ٣٣٤ » وقضى على سيادة الفرس في الديار الشامية والمصرية وضم سورية الى كيليكيا وجعلهما عمالة واحدة

البطالسة والسلوقيون

وفي ايام البطالسة والسلوقيين خلفاء الاسكندر لم ينفك المصريون عن التدخل في شؤون سورية فتابعوا نفس الخطة التي جروا عليها في اعصر سلفائهم وكانت فلسطين من نصيب بطليموس صاحب مصر وتعاقب البطالسة عليها الى بدء القرن الثالث واما فينيقية فظلت تتنازعها ايدي الفاتحين من هؤلاء الملوك الى وقت طويل فكانت تارة تقع في ايدي السلوقيين واخرى في ايدي البطالسة اصحاب مصر الى ان تسنى للرومان التدخل في شؤون سورية لالتجاء انيبال بطل قرطاجنه اليها وهو العدو لهم ولم يطل الزمن حتى وقعت الحرب بين الرومان والسوريين وانجلت عن فوز الرومان وفرضهم الجزية على ملك سورية وبعد حين عادت رومية الى التحرش بسورية واستفزتها الى مناصبتها العداء وفي اثناء ذلك كانت مصر تدس الدسائس في الديار الشامية اضعافاً لها ليتسنى لها الاستيلاء عليها فاغرت

اسكندر بالا بالادعاء بالعرش السلوقي فظفر بهِ ثم قام عليه ديمتريوس نيقاتور وخلعه عن العرش بمساعدة مصر واساء التصرف مع الشعب فشبت ثورة في البلاد وبرز المكابيون فصالوا واتوا اعمالا عظيمة واستفلوا بالملك وتلا ذلك قيام تريفون على انطيوخوس الثامن وفتكه بهِ واستبداده بالدولة وحدوث اضطراب عظيم ادى الى انقسام المملكة وتجزؤها وتخاذل امرائها وزعماء اقوامها والسياسة الرومانية متبعة مجراها

ولما دخلت الدولة السلوقية في دور الاحتضار كان الضعف بلغ أشدّه من المملكة السورية فتحين الرومان الفرصة وجاء بومبايوس « سنة ٦٣ » وافتتحها وجعلها عمالة رومانية ولم يلبث ان اكتسح القطر المصري والحقه بالممالك الرومانية فكانت مصر وسورية في عصر الرومان شقيقتين تتقاسمان البلوى وتشكوان عبر الزمان على السواء

العصر البيزنطي

واما في العصر البيزنطي فلم نجد في تاريخ مصر وسورية ما يشير الى اتحادهما في امر خطير او تدخل احداهما في شؤون الاخرى بوجه من الوجوه الا ما ندر

ولما تقلص نفوذ بيزنطيه من سوريه وافضت السلطة فيها الى العرب في القرن السابع للمسيح . عادت العلاقات فاستحكمت بين الديار الشامية والمصرية باتصال سيادة الفاتحين الى مصر على يد عمرو بن العاص . وقد كان عصر العرب في القطرين في ولاية بني امية وبني العباس عصر فلاح واقبال وان لم يخلُ من شوائب شوهت شيئاً من محاسنه وبلغ الرقي الادبي العلمي في سوريا شأواً بعيداً في ايام هارون الرشيد اعظم خلفاء العباسيين وانتشرت المدارس في ولايته انتشاراً كبيراً ولا سيما في دمشق ورسخت آداب الفاتحين والعلوم التي تلقنوها من علماء السريان واليونان في القطرين السوري والمصري وتأصلت عاداتهم واخلاقهم وتقاليدهم عند السوريين والمصريين وما زال هذا شأنها الى اليوم فانك ترى الى الآن في اخلاق الشعبين وعاداتهما وعلاقات الافراد احدهم بالآخر مسحة عربية بحتة تكاد لا تختلف في شيء عنها في ابان عصر العرب مع ان الدول الفاتحة التي تعاقبت على حكم البلادين بعد الفتح العربي ولا سيما الاتراك على اختلاف دولهم افرغت

جهدها في التمتع بجميع حقوق الفتح على اسلوب ينزع من البلادين طابعها العربي

ولما نقل مركز الخلافة الى بغداد . قامت في الديار السورية فتن شديدة تلتها ازمة متطاولة انجلت عن استقلال امراء البلاد وغراتها بالحكم ولم يبق للخلافة رأي في شؤون بلادهم السياسية فكانوا يجلون مقامها بما لا يخرج عن الطاعة الاسمية واصبحت سورية من جراء هذا الانقلاب كريشة في مهب الريح تارة تضم الى مصر كولاية خاصة بها وطوراً يقوم لها سكونها ملوك اكثما يستقلون في شؤونها

عصر الدول الثانوية

وفي طليعة الفاتحين الذين اغتصبوا ولايتها أثر تلك الفتن احمد بن طولون صاحب مصر الذي ظهر في القرن الثامن ثم ظهرت دولة الاخشيديين في القرن العاشر ثم دولة بني حمدان في الموصل ثم دولة القرامطة فعاثت في البلاد ثم قامت المنازعات بين امراء سوريه وعمالها على السيادة فيها فتحين الروم الفرصة واسترجعوها ثم قامت دولة الفاطميين في مصر واستولت على ديار الشام وعادت العلاقات السياسية

بين مصر وسوريه الى ما كانت عليه في الاعصر السابقة وقام الحاكم بامر الله بنشر دعوته في الديار الشاميه فنشبت في البلاد ثورة فكريه تخللتها فتن شوهت صفحة الفاطميين في ديار الشام . ثم قامت دولة السلاجقة في القرن الحادي عشر فاكتسحت سوريه وعادت الفتن والمنازعات تمزقها وظهرت دولة بني عقيل المرذلين فى الشمال ثم عصابات السفاحين المعروفين بالاسميلية فعاثت فى البلاد كثيراً وانقسمت على يدها دولة السلاجقة الى قسمين قسم فى حلب وقسم فى دمشق

عصر الصليبيين

وفي عصر الصليبيين تجددت العلاقات بين مصر وسوريه وحاول بعض ملوك الافرنج فتح مصر الى ان قام نور الدين الزنكي صاحب دمشق ففتح مصر على يد قائده الناصر صلاح الدين الايوبي الكردي في اواخر القرن الثاني عشر وقطع دابر الفاطميين منها . ثم استبد صلاح الدين بالحكم وفتح ديار الشام وواقع الافرنج وكسرهم في مواقع كثيرة وكان اشد عدو خطراً على سلطتهم في المشرق

وفي اواسط القرن الثالث عشر ظهر اهل خوارزم وهم من القبائل التي فرت من امام جنكزخان في زحفه على بلاد الشام وفتحه لها واستقروا في شمالي سوريا بايعاز المصريين لانجادهم حين الحاجة . ثم استفحل امرهم واجتاحوا الديار السورية حتى بلغوا اورشليم وغلبوا الافرنج على امرهم وحصروهم في منطقة ضيقة من بلاد الجنوب

دول المماليك

ثم قامت دولة المماليك البحرية او الكردية في منتصف القرن الثالث عشر واستولت على مصر وسورية وقرضت دولة الايوبيين وقامت في اثناء ذلك دولة التتر او المغول فاستولت على سورية وطردت المماليك منها ثم عاد المماليك فاسترجعوها على يد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الذي دانت لصولجانه بلاد الشام باسرها ثم استرجع المغول سورية في آخر القرن الثالث عشر في ايام تيمورلنك الذي غزا دمشق واجلى صناعها ولا سيما صناع الاسلحة الدمشقية المشهورة الى بلاده ثم قامت دولة الجراكسة المعروفة بدولة المماليك البرجية على حكم مصر وسورية في اواخر

القرن الرابع عشر وظلتا في حوزتها الى الربع الاول من القرن السادس عشر حيث افضى تاج آل عثمان في الدولة التركية الى السلطان سليم الاول الفاتح المشهور فاكتسح القطرين السوري والمصري ولكنه ترك لامراء سوريه شيئاً من الاستقلال وترك للمماليك في مصر بيكاتهم الاربعة والعشرين واطلق عليها اسم سناجق مكتفياً بابطال سيادتهم المليافي وادي النيل

الفتح العثماني

وعلى الاجمال فان الفترة التي انقضت بين الفتح العربي والفتح العثماني في الديار المصرية والشامية نغصت عيش الشعبين المصري والسوري واوردتهما موارد الحطة والبوار لما توالى عليهما في خلالها من النكبات التي صرفت الناس عن ارزاقهم الى الاحتيال على تخفيف عبء المظالم التي حلت بهم بالتزلف الى الحكام ووقف ما عز لديهم من شرف وروح ومال على مشيئتهم واهوائهم فكانت اكثر العصور المظلمة شؤماً على البلادين .

وقد ظهر الاتراك العثمانيون عند استيلائهم على ديار الشام

وبلاد العرب ومصر بمظهر الخلفاء الحقيقيين فاجروا العدل بين الناس واقاموا دعائم سلطانهم في هاتيك الاصقاع على اساس الحلم والانصاف فاقالوا البلاد من عثرتها وانتشلوها من وهدة الخراب والانحطاط التي كانت دول الاكراد والمماليك والمغول رمت بها اليها لكنهم بعد انقضاء زمن الفتح وانبساط رواق سلطتهم في هاتيك الديار ظهر عجزهم عن مجاراة الخلفاء الاولين فجار عمالهم في القطرين الشقيقين وهم في شغل عنهم يتلاهون ببهرجات الملك فرجما الفهقرى وحال اعتساف الحكام ووشايتهم بعضهم ببعض وتحاسد الزعماء المحليين وتنابذ رؤساء الطوائف وتنافرهم دون سدّ ثلمتهما واصلاح مافسد من امورهما

وفي ايام السلطان سليم الثالث حمل نابوليون بونابرت على مصر ثم اجتازها الى سوريه سنة ١٧٩٩ فاخضع احمد الجزار وفتح بعض مدن فلسطين ثم قفل راجعاً الى مصر فقر نسا وعاقد الاتراك على السلم

ابراهيم باشا في سورية :

وفي ايام السلطان محمود « سنة ١٨٠٨ — ١٨٣٩ »

انفرجت الازمة السياسية في البلاد غير انه ما كاد يشعر الاهلون بشيء من اليسر والهناء ولا سيما في سورية حتى ظهر الوهابيون في جزيرة العرب وكان الحكم في مصر افضى الى محمد علي باشا بموافقة الدولة العثمانية وكان هذا الفاتح العظيم منذ تبوأ عرش الامارة المصرية يرمي الى التوسع في الملك وانشاء سلطنة واسعة تليق بعظمته فلم ترَ الدولة اقدر منه على خضد شوكة الوهابيين فحقق ظنها بهِ وقضى على هؤلاء القوم قضاء مبرماً وكان ان عبد الله باشا بن احمد الجزار والي عكاء خرج عن طاعة الدولة فعهدت الدولة الى محمد علي بتأديبه واعادته الى طاعتها فارسل ابنه ابراهيم باشا الى عكاء سنة ١٨٣٢ فحاصرها وفتحها بمساعدة الامير بشير الشهابي الكبير حاكم لبنان مع رجاله اللبنانيين وكافأ صاحب مصر الامير الشهابي بان خوله حق تسمية الحكام المحليين في جميع مقاطعات سوريا . ولم يقصر الفاتح المصري عمله على اخضاع العاصي بل توغل بجنده في البلاد الشامية واستولى على دمشق وصادق اللبنانيين فكانوا له عوناً على الاتراك ردحاً من الزمن ثم انقلب فريق منهم عليه فقاتلهم وتوغل في بلادهم

وجرت له معهم عدة موقعات ثم سار الى حمص وبيلان وافتتحها وبعد سنة واحدة لاجتيازه حدود مصر دخلت بلاد الشام باسرها في حيازته واقرّ حكومة ابيه فيها واستأنف السير الي الاستانه لفتحها . فاشفقت اوربا من بطشه على سلامة السلطنة واختلال التوازن الدولي فاتفقت انكلترا والنمسا وبروسيا وروسيا على اخراجه عنوة من ارض الدولة وبعد ان امنت جانب فرنسا التي كانت تعضد امير مصر ارسلت الى سوريا حملة مختلطة غلبته على امره وفي استيلاء الاميرال بابيه الانكليزي على حصن عكاء تمّ جلاء الجند المصري عن ديار الشام ورجوعها الى الدولة العثمانية بعد ان قامت مصر على حكمها ثمانية سنين .

ولقد اشتهرت حكومة ابراهيم باشا في سورية بالعدل والانصاف وما زال السوريون الى اليوم يتناقلون اخبار هذا الفاتح العظيم ويتحدثون بما ظهر في بلادهم من آيات عدله وشجاعته ومروءته . وهم مجمعون على انه فاتح عظيم ومن اكبر رجال القرن التاسع عشر

تعانق الشقيقتين:

وبعد فتنة سنة ١٨٦٠ في لبنان وسوريا كان الضعف بلغ شأواً بعيداً بالبلاد الشامية فهاجر كثيرون من ابنائها الى الخارج التماساً للهناء والحرية وكان السوريون ادركوا ما يتهدد بلادهم من الاخطار اذا ما تابعت الخطة التي جرت عليها الى ذلك الحين وكان ان اقبلت على البلاد الرسالات الاوربية الدينية فانشأت مدارس كثيرة ونشط الاهلون من عقالهم ونسجوا على منوالها فاكثروا من دور العلم وما هي الا فترة من الزمن حتى غصت البلاد بالمتعلمين من ابنائها وقصد فريق كبير منهم الديار المصرية في مدات متقاطعة فضمتهم الاسرة العلوية الشريفة بالتفاتها السامي وقربت نوابغهم وتشملت علماءهم وكتابهم فكانوا من اعظم دعائم الحركة الفكرية في وادي النيل ولم تدخر وسيلة لمساعدتهم على تقوية مركزهم في هذه البلاد مقتدية بمؤسسها العظيم الذي كان اول من فكر في اتخاذ السوريين ولا سيما اللبنانيين منهم عوناً لاخوانهم المصريين وشركاء لهم في تأسيس رقي البلاد المصرية على قاعدة تبادل المنفعة بين القطرين الشقيقين . وهكذا انشأ

السوريون فى هذه البلاد السعيدة وحدتهم القومية ولم يمر عليهم ردح من الزمن حتى بانوا قوة عظيمة فيها لا يستهان بها وعاشوا مع اخوانهم المصريين اشقاء متآزرين ولم ينسوا ما اغدقت عليهم الاسرة العلوية من آلائها فهم يذكرون ما لها عليهم من الفضل بالشكر العظيم .

البرنس محمد علي والسوريون :

ولقد زاد الشعبان المصري والسوري تقرباً وائتلافاً وزاد السوريون اخلاصاً للعرش الخديوي العثماني وتعلقاً بسليل محمد علي الكبير بعد سياحة دولة الامير الخطير محمد علي باشا شقيق الجناب العالي في الديار السورية سنة ١٩١٠ واظهاره لهم الود والانعطاف في الليلة الخيرية التي أقيمت مؤخراً في الاوبرا الخديوية بعنايته وتحت رعايته لمساعدة منكوبي بيروت في ضربتها الاخيرة الموئلة (١)

---

(١) مما تحسن الاشارة اليه على ذكر هذه الحفلة التي جمعت بعض امراء مصر ومعظم وزرائها ونخبة كبرائها وعلمائها وادبائها — ما بذلته اللجنة التي تألفت من نخبة رجال مصر لاحيائها تحت رعاية دولة الامير الخطير محمد علي باشا من المساعي الجليلة واظهرته من الغيرة الشديدة لجعلها من حفلات مصر النادرة المثال في كل وجه ومعنى حتى ناهز

ودولة الامير من اكثر امراء الشرق علماً وادباً وظرفاً وابعدهم همة محب للادب والادباء والعلم والعلماء يعرف الرجل بصفاته ومكانته الادبية والعلمية لا بعلو قدره وضخامة ثروته وجنسيته فهو من هذا القبيل من اقدر امراء الشرق على تقدير قيمة الافراد والجماعات حق قدرها واشدّ كبار هذه البلاد استنكاراً لخطة من يعملون على التفريق بين العناصر التي يتألف منها الشعب المصري . ونحن قد عرفنا بنفسنا انه ينزع خاصة الى جعل الصلات الحسنة مستحكمة الحلقات بين الشعبين المصري والسوري وهو يعمل بارشاده وسعيه

دخلها اربعين الف فرنك .

وقد اظهر سعادة وطنينا المقدام سليم بك ايوب تابت سكرتير اللجنة من الوطنية الصادقة في ما ابدى من الحماسة والغيرة وعانى من المشاق في جهاده المتواصل تعضيداً لمساعي زملائه الكرام ما زاد اعجاب الناس به واوجب له الشكر الجميل من اخوانه السوريين . وكل ما كان يرمي اليه بذلك ان يظهر السوري ازاء ما شهده من انعطاف مصر الى شقيقتها في مصابها الاخير بمظهر المقرّ بفضل البيت الخديوي العظيم على السوريين جميعاً ويمثل قومه السوريين لمعشر اخوانهم المصريين تمثيلاً صحيحاً دالاً على ان ما يحفظه كل منهم من الجميل لمصر وطنه الثاني هو نفس ما يحفظه منه لسوريا وطنه الاول .

على ازادتها احكاماً توصلاً لنفي كل سوء تفاهم من بينهما وربطاً لهما برباط اخاء صحيح لا انفصام له . ويعرف للبنانيين خاصة نشاطهم وذكاءهم وكونهم اول حلقة من صلات القربى التي جددها موسس الاسرة العلوية العظيم بين القطرين الشقيقين . ونزوعه الى العثمانية ورغبته في استمساك العناصر العثمانية بها وتساندها واتحادها تحت العلم العثماني ذلك امر مشهور عنه لا نزاع فيه

وبينا نحن آخذون في طبع هذه النشرة اذا باجنة تألفت في العاصمة من كبار اخواننا المصريين تحت رعاية دولة الامير الجليل عمر باشا طوسن لاحياء ثلاث ليال كبيرة تخفيفاً لويلات المنكوبين في حريق دمشق الاخير فباسم السوريين جميعاً نمحض حضرة القائمين بهذه المأثرة الكبرى من رجال مصر الكرام خالص الشكر ونحفظ لهم من اجلها اجمل ذكر

واجابة لداعي الوطنية رأينا ان نقدم جانباً من نسخ هذه النشرة الى هذه اللجنة لتضيف ما تجمعه من ثمنها الى دخل الحفلات التي ستقيمها مساعدة للمنكوبين ونوزع ما يبقي منها مجاناً على حضرة ادباء القطرين الشقيقين قياماً بوعدنا لاننا اعددناها للطبع ونحن عازمون على اهدائها لهم بلا مقابل

ولئن كان اليوم سوريو اميركا يتأهبون لاستقباله هناك في ارض كولومبوس استقبالاً شائقاً والاحتفاء به احتفاءهم برجل عظيم فلانه قلدهم جميلاً بالتفاته الى اخوانهم سوريي مصر ومصادقته لهم — ومن اخص مميزات السوري الاقرار بالجميل — ولان السوريين عن بكرة ابيهم يعرفون للاسرة العلوية فضلها عليهم ولا سيما على اللبنانيين فلا يريدون ان ينزل سليل محمد علي الكبير ارضاً فيها سوري او لبناني لا يظهر امامه بمظهر الودود المقر بالفضل له ولا سرته على وطنه ومواطنيه .

والخلاصة ان هذا الامير الذي هو في اعتبار من يعرف فضله وسمو منزلته في عالم الادب من نوابغ هذا العصر في المشرق انشأ في تاريخ العلاقات بين مصر وسوريا العثمانيتين صفحة ذهبية جديدة لم تر الشقيقتان ابدع من آياتها ولا اجمل من الدرر الغوالي المنظومة فيها منذ اقدم ازمنة التاريخ الى اليوم .

بولس مسعد

ابريل سنة ١٩١٢